العبادة

للدكتور مصطفى كمال وصفى
المستشار المساعد بمجلس الدولة

العبادة هى ما يؤديه الشخص لمعبوده ، نتيجة علاقته بهذا المعبود ، متى كان هذا المعبود هو هدف الشخص فى أفعاله وغرضه الدافع على انبعاثه ، وكان العابد مأسورا للمعبود بروحه واخلاصه وعقيدته وايمانه .

والعبادة اشتقاق من العبودية ، وهى حالة كانت تقوم بالشخص – فى بعض النظم – فتسلبه الحرية وتورد عليه سلطة مادية للسيد على عبده فتجعل له الحق فى الانتفاع به واستغلاله والتصرف فيه . غير أن العبودية فى هذه النظم كانت سلطة ترد على الجسد والمال فحسب ، أما العبادة فترد على الجسد والروح أيضا .

وعلى ذلك تتميز العبادة بما يلى :

١ – انها أفعال تصدر عن الشخص . سواء أصدرت عن جوارحه وتصرفه ، أو عن قلبه ونواياه .

٢ – أنها تنشأ عن علاقة بين العابد ومعبوده . وهذه العلاقة تكيفها عقيدة الشىء فى معبوده وايمانه به . ويتمحض عنها راضيا وعن طواعية .

٣ – وفى هذه العلاقة ، يكون المعبود هدفا وغرضا . ويكون العابد خالصا لمعبوده بالروح والعقيدة والايمان ، فهى علاقة روحية ، وان استتبعت بالضرورة أن تصير ماديات العبد وأمواله وجسده خاضعة لسيطرة المعبود وتحت امرته .

والعبادة بهذا المعنى لازمة من لوازم الانسان . وغريزة طبيعية فيه . فالانسان عابد بفطرته . واذا لم يعرف لنفسه الاها ، لما انفك عن أن يبحث لنفسه حتما عما يعبده ، ويقيد نفسه به فى خواطره وسوانحه ونواياه ، وأفعاله وتصرفاته وما يبدر منه . فما من شعب فى فطرة أو جاهلية أو بداوة أو حضر الا وكان له ما يعبد . وما من انسان الا ويتخذ لنفسه الاها يعبده . ويتمثل ذلك فى قول الله عن ابراهيم لما بدأ يفكر فيما يعبد ، وكيف اتجه فكره الى النجوم والقمر والشمس يريد أن يتخذ منها آلهة له حتى هداه الله اليه ، وارتضاه ربا له . فهذا الذى اعتمل فى خاطر ابراهيم وجبره على أن يبحث عن اله يعبده ، هو ما أجبر الخلائق جميعا على اختلاف ألوانهم ومشاربهم وحضاراتهم وعصور قيامهم على اتخاذ آلهة وعبادتها .

غير أن الناس يختلفون فى عباداتهم ومعبوداتهم اختلافا عظيما .

ولا نقصد فى ذلك تعدد الاديان والالهة فيها فحسب ، بل نقصد بصفة أصلية، تعدد الناس فى أهدافهم وحيازة هذه الاهداف لارواحهم واستأثارها بتحريك دوافعهم وبعثهم عن العمل .

ولما كان هذا بحث فى التصوف الاسلامى ، لا فى الاديان المختلفة ،فان النظر يركز آذن فيما يخامر عقيدة المسلم فى عبادته لله .

ففى دين الاسلام يتخذ المسلمون الله معبودا لهم بلا شريك .

ولكن علائق قلوبهم قلما تخلص لله ، وتتمحض له وحده دون غيره . فالانسان بطبيعته محجوب عن الله بما يحيطه من ماديات .

وهذه الماديات كما هو معلوم هى النفس . والمال.والشهوة لقوله عليه الصلاة والسلام « ثلاث مهلكات هوى مطاع وشح متبع واعجاب المـــرء بنفسه » أو كما قال . وهذه الحجب الثلاثة هى التى تتفرع وتتشكل فى مسائر ما يضل الانسان عن الله

وهذه الحجب تتدخل بين الانســـان وربه ، وتحجب الله عن النفس ، وتبرز فى القلب كآلهة كاذبة يضل بها الانسان عن الله .

ذلك بأن هذه الحجب تفتن الانسان عن ربه فيتخذها فى ذاتها أهدافا وأغراضا ، ويصير مأسورا بها فى ذاتها مدفوعا اليها متحركا بها ومنبعثا ومنفعلا وراءها ، فيصير فى الحقيقة عابداً لها دون أن يشعر .

فمتى اعترض الحجاب سبيل العلاقة بين الانسان والله ـ وهو بالضرورة كذلك ـ فربما ، بل وغالبا ، ما يحتل هذا الحجاب مركز المعبود فى النفس فيقف عنده ، ويعجز عن أن يجاوزه الى ما وراءه وهو رب العالمين .

فمن الناس من يظن نفسه وقفا على مصالحه ، أو أن كل رسالته فى الحياة هى رعاية ولده والكد والعمل له . ومنهم من يفتنه ماله أو مركزه وجاهه ، ومنهم من يضع نفسه رهنا لامرأة ينكحها أو يبتغيها أو دنيـــا يصيبها . فكل هؤلاء يعبدون . ويشركون بالله . وتخالط هذه الاهداف والاغراض عقائدهم وعبادتهم وتفسدها عليهم وتنقص بها . ألا ترى أنهم يقتلون نفوسهم فى سبيلها ؟ فلا يكاد بذلك يخلص فى النـــاس دينا لله وحده ولا عقيدة فيه دون سواه .

ولذلك قال العلماء أن القلوب لا تخلو من الشرك الخفى . وانه لا محالة قائم فى النفوس وان لم يشعر به أصحابها ، فيضل سعيهم فى الحيـــاة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

أما اذا خلصت العقيدة لله وحده ، وصفت العبادة له ولم يشبها فى القلب مع الله الاها آخر ، وهو ما يندر تحققه ، فان ذلك يجعل العبد ربانيا يقول للشيء كن فيكون • (الحديث) فتكون له بذلك همة تتدكدك بها الجبال ، وتتزلزل بها العقبات • وهو أمر غير مألوف فى سوادالناس كما نلاحظ • وقد سئل المسيح عليه أزكى السلام كيف يؤتى معجزاته فقال لو آمن كل منكم كما أومن لصار مسيحا •

الا أن الوصول الى معرفة الله جل جلاله ، وعبادته العبادة الصحيحة عن معرفة حقيقية أمر عسير حقا • بل أن هذا الطريق ملىء بالفتن • فهو طريق وعر كله مزالق ومهاوى مما لا يعرفه الا السالكون الى الله • ويتطلب من الانسان أن يعتصم بايمان قوى راسخ لا تزلزله الحوادث ولا تتطرق اليه الهواجس والفتن •

فمتى كان من المسلم به أن العقل لا يستطيع أن يصل بمفرده الى المعرفة الحقيقية لذات الله ، وما دام أن الانسان لا يستطيع أن يستخلص كنه الله من صفاته ، وذلك لتعددها وتناقض ظاهرها — كما يتبادر الى الذهن البشرى — وتناهيها فى السمو ، وما دام أن بعض هذه الصفات غيرمفهومة على حقيقتها للناس — كصفة الرحمن التى أختلف العلماء فى معناها وصفة القدوس — فان الواقع هو أن بعض الصفات تظل معطلة فى تصورالانسان وبالتالى تصل فكرته عن الله ناقصة ، وبالتالى ينزل الانسان الله فى قلبه منزله من النقص هو منزه عنها سبحانه وتعالى • وكما أن الانسان لا يستطيع أن يحدد الله بالكيف المستخلص من صفاته ، كذلك فهو لا يستطيع أن يقيس مدى رحمة الله مثلا أو مدى عدله أو كبريائه ، فالله غير محدود لا بكيف ولا بقدر • وبالتالى تظل صورة الله فى كل قلب من قلوب عامة الناس باهتة غامضة ناقصة بقدر الايمان وبقدر المعرفة •

فربما صعق الانسان وفنى لتوه متى تبادر الى ذهنه شيء عن رحمة الله أو مدى عدله • لان عقله لن يطيق ذلك • وان بادرة من بوادر رحمة الله أو عدله ، تتجلى عنها حادثة أو سانحة ، تقلب موجدة الانسان وتهيج شجونه حتى يكاد يتيه • وربما كان تجلى الله للجبل — الذى جعل موسى يخر صعقا ، هو من قبيل الظهور بصفة من صفاته فى ذلك الجبل ، ولم يكن تجليا برؤية العين والله أعلم وأستغفر الله •

ولذلك كان الانزلاق الى نار جهنم وشيك • وكانت النجاة من ذلك فوزا عظيما ولذلك قال الله تعالى : « **فمن زحزح عن النار وادخل الجنة فقد فاز** » وقال أيضا « **ان الانسان لفى خسر ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** » وأين هم الذين آمنوا من هذه الصعوبة الظاهرة فى المعرفة ؟

ولذلك أيضا قال العلماء « الناس هلكى الا العالمون • والعالمون هلكى

الا العاملون ، والعاملون هلكى الا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم »

ووجه الخطر فى ذلك أنه متى كانت معرفة الله فى القلب ناقصة أو باهتة ، كان الايمان به كذلك ناقصا وباهتا . وليس من شأن هذا الايمان الناقص الباهت أن ينفع صاحبه فى شىء . ولا أن يعصمه فى سلوكه . لانه متى كان الايمان ضعيفا لم يكن مانعا يحول دون الانسان والوقوع فى المحارم . ولا سببا يؤدى بالعبد الى كمال الاعتماد على الله والاتكال عليه وحده دون السوى . فهذا الايمان الضعيف يحول دون قيام الانسان فى مقام من مقامات النجاة كالخوف أو الاتكال أو المحبة والرضا . فما دام هو لا يعرف الله تماما فهو لا يقدره حق قدره ولا يخشاه حق خشيته كقول الله « **وما قدروا الله حق قدره** . » وقوله « **انما يخشى الله من عباده العلماء** » . وما دام لايخشاه حق خشيته فانه لايمتنع عن محارمه . وكذلك فما دام لا يعرفه فهو لا يستطيع أن يتوكل عليه وحده ، **بل يجد أنسه فى** الاتكال على ما يعرفه بحواسه من الماديات . وهو خطر عظيم . وما دام أمره كذلك فهو لا يصل الى المحبة له والفناء فيه والرضا به .

وكل ذلك يبدو حقيقة خطره فى المآزق والبلايا . وبخاصة عند الموت . اذ أن مثل هذا الانسان وقت الخطر لا يستطيع أن يعتمد على الله وحده الاعتماد الكافى أو أن يأنس به وحده ويكتفى به ما دام ايمانه به غير كامل . وعند ذلك يطرح القلب ما اكتنز من أفكار السوء بالله . ويطفح بشركه أو كفره ويبحث عما يسنده من دون الله فلا يجد له من دونه سندا اذ تزلزله الفتن فتخرج أثقالها من أفكار السوء التى اكتنفت قلبه وتتدمر عقيدته وتهتز وكان يحسبها كالجبال الراسيات . وهذه هى خشية سوء الخاتمة والعياذ بالله التى يخاف العباد فتنتها .

هذه الخطورة العظيمة فى العبادة تنشأ من سوء توجيه القلب وتخبطه فى سماء معرفة الله . ومن أجل ذلك وجب أن يكون هناك ضابط ومأمن يعرف به الانسان ربه ، ويسلم به من الضلال فى سبيل السلوك فى هذا الطريق العسير .

والوسيلة التى أنشأها الله لنا هى ارساله للرسل الانبياء الاصفياء وهم بدورهم تحت لواء سيد الخلق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفى ذلك يقول الله تعالى « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » .

فلا شك فى أن الرسول عليه أزكى الصلاة والسلام كان متحققا بالله ذاته ؛ عارفا له حق المعرفة ، عابدا له دون سواه . فله من العزم والقوة ، وله من القرب والمكانة ، ما يجعل روحه تطيق هذه المعرفة . فهو بلا شك قد ألم بحقيقة الصفات الالهية ومدلولات معناها وتناهيها وتعاليها . وهو قد طاق ذلك دون أن تزل قدمه أو يطيش صوابه ، لاستعداد روحى فيه .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله « لى ساعة مع ربى لا يطيقها ملك مقرب ولا نبى مرسل » أو كما قال . وقوله « أنا أعرفكم بالله » أو كما قال .

وعلى ذلك ، فاذا عجز الفكر العادى عن أن يقصد الله ، أو أن يتوجه الى ذاته بالعبادة ،فانه يكفيه أن يربط نفسه بالرسول ، ويقول « اننى أعبد ما عبده محمد » فيكفيه ذلك التعيين والتحديد عن أن يطيش سهمه فى سماء اللانهائية ويرتد اليه خائبا دون أن يبلغ مداه .

وعلى ذلك تنقلب العبادة من الاجتهاد المستحيل ، الى السبيل الميسور. فيضبط الانسان نفسه بأنه على دين محمد . ويتابع محمدا فى سنته ويتخذه أسوة له . وينجو بذلك من هذه الفتنة التى لا سبيل بغير ذلك الى تجنبها .

ونكرر لذلك قول الله تعالى « **وما أرسلناك الا رحمة للعالمين** » فاعتبروا.

لانه بدونه لم يكن يتيسر للانسان أن يتوصل الى عبادة الله ، ولو علم أن هناك الاها ، أو تعلم شيئا عن صفاته وأفعاله. فليست الرحمة المقصودة هنا هى مجرد قيام الرسول بالاخبار بالله والارشاد الى شريعته وريقه ، ولكن الرحمة هى جعل العبادة سهلة ميسورة باتخاذه وسيلة فيها

ومن أجل ذلك كان محمدا صلى الله عليه وسلم هو الوسيلة الى الله . وأصر الصوفيون على هذه الفكرة وجعلوها أساسا لمذاهبهم .

فاتخاذ الانسان للرسول مثلا له ، واقتدائه به ، واستمداد همته منه ، يعينه فى عبادته لله . ويجعله يبلغ قصده منها .

ولا شك فى أن فكرة الوسيلة ـ كما هو معلوم ـ من أهم المسائل التى اختلف فيها المسلمون . وتفرقت فيها الآراء . ولكننى اذ أبسطها على هذا الوجه ، أقرب للاذهان قبولها وتمشيها مع المعقول والمفهوم .

وقد فسر بعض العلماء آية « **وابتغوا اليه الوسيلة** » بأنها العمل الصالح فحسب ولكن العمل وحده لا ينجى صاحبه لقوله عليه الصلاة والسلام لا يدخل أحد الجنة بعمله . قيل ولا أنت يا رسول الله . قال ولا أنا الا أن يتغمدنى الله برحمته . أو كما قال .

بقى أن نقرر حقيقتين :

الاولى ـ قيل بأنه اذا كان من المتصور أن يخيب المسلم فى بلوغ قصده من عبادة الله ، بأن يوجه همته الى هذه العبادة ، ولكن تحجبه الحجب ، أو يرتد اليه سهمه لانه لم يربط نفسه بصاحب الرسالة ، فانه كذلك يتصور ـ بالعكس ـ ان لا يخيب غير المسلم فى بلوغ قصده فى عبادة الله

وذلك اذا صفى قلبه من الحجب ، ثم استقام على الطريق حتى اهتدى .

ففى هذه الحالة يبدأ توجه العابد الى ما ينصبه له دينه .ولكنه سرعان ما يتضح له أن هذا المعبود ليس هو المقصود بذاته ، وانه ليس الا قبله يتوجه خلالها الى الحقيقة والاصل . فيجاوزها ولا يتعطل بهـــا . فاذا أشرقت عليه الحقيقة ، فانه يربط نفســـه بما يجب للعـابد من الكمال الانسانى . ويضبط نفسه بضوابط هذا الكمال متحققا به.وهذا الكمال هو فى الواقع « الحقيقة المحمدية » ولو لم يدركها هذا العابد فى البداية. وفى ذلك مصداق لتفسير بعض المفسرين لقوله تعالى « **وان من أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته** » .

وهذا الرأى هو رأى بعض أئمة التصوف الاسلامى الذين لا يمانعون فى أن يكون بين الخلصاء عبادا فى الاديرة والكنائس وسائر المعـــابد ، منغمسين فى مختلف الاديان . بل وفى مسارح الجبـال ومطارح الارض ومهاويها ومروجها ، يعبدون الله على الفطرة فى جمـــال الشروق وروعة الغروب ورشاقة الظبى وترنيم الطيور ، وسمو النجم وعنف العاصفة . « **وسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون** » .

الثانية ـ أن العبادة الوحيدة التى تسعد بها النفس ، وتهنأ بها الروح وتعصمها من الفتنة هى عبادة الله على حق . وذلك لحيازته سبحانه وتعالى وحده ودون سواه لصفات المعبود الصادق الذى يكتفى به الانسان ربا . أما المعبودات الكاذبة فهى لا تورث الانسان الا الشقاء والهم والقلق.وذلك لانها لا تحوز الصفات التى تجعلها هدفا صالحا يستأثر بالانسان ولذلك قال الله تعالى « **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم** »

وربما أمكننى فى بحث آخر أن أقدم هذه النقطة الهامة .

اللهم لا تجعل لى سواك ربا . وأحينى على دين محمد وأمتنى عليه .

خاتمة البحث

اذا أردت أن تعرف مكانك من الله فانظر الى حالك فى الصلاة .

الرفاعى
مصطفى كمال وصفى

* * *